كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

نحو اللغة العربية بين الماضي والحاضر

إعداد

أ. د /مصطفى سيد محمد السمين

أُسْتَاذ اللُغَوِيَّاتِ في كُلِّيةِ اللغةِ العربيةِ في أسيوط

(العدد الخامس والثلاثون الجزء الثاني ٢٠١٦م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . وبعد :

فإن علم النحو من أشرف العلوم العربية قدرًا ، فقد قام بدور كبير فى تقويم اللسان ، وساعد على بقاء اللغة العربية فى قدر من الاتزان .

ويكفي النحو شرفاً وفضَلا أنه السبيل الواضح لفهم كتاب الله وحديث رسوله ﷺ . وأنه لا سبيل لفهمهما دون معرفة الإعراب وتمييز الخطأ من الصواب ؛ لأن الإعراب إنما وضع للتفريق بين المعاني ، ولو ذهب الإعراب لاختلطت ولم يتميز بعضها من بعض ، وتعذر على المخاطب فهم ما أريد منه ، وحسبنا أن نذكر هنا بعض الروايات التى ذكرها المؤرخون حول سبب وضع علم النحو لنستخلص منها الدروس والعبر :

ـ ومن ذلك ما روى أن أبا الأسود الدؤلي سمع ابنته تقول : ما أحسنُ السماء ، وهي تريد التعجب لا الاستفهام ، فقال لها قولي : ما أحسنَ السماءَ ! ثم ذهب أبو الأسود إلى أمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ وشكا له فساد لسانها ، فوضع له بعض أبواب النحو ، وقال له : انح هذا النحو! ومن أجل ذلك اصطلح على تسميته " النحو " .

وتروى هذه القصة برواية أخرى تؤدي المعنى نفسه :

ـ فيروي أن أبا الأسود دخل على ابنته فقالت له : يا أبتِ ما أشدُّ الحر ! فقال : الرمضاءُ فى الهاجرة !! فقالت : لم أرد ذلك ، وإنما أخبرتك بما هو فيه الآن ، فلما سمع منها ذلك قال : فقولي ـ إذن ـ ما أشدَّ الحرَّ ! ثم قال : إناَّ لله ! لقد فسدت ألسنةُ أولادنا " .

. وقصة الأعرابي الذى سمع من يقرأ " أن الله برئ من المشركين ورسوله " بجر رسوله ، أشهرُ من أن تُشرح ، فقد استنكر الأعرابي هذا اللحن فى القراءة الذى يذهب بالمعنى ويغيره وقد أدرك ذلك بفطرته وسليقته السليمة التى تفرق بين الخطأ والصواب من دون معلم ولا كتاب ! .

. ويروى أن أعرابياً سمع مؤذنا يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله بنصب " رسول " فقال له : ويحك ! يفعلُ ماذا ؟!

فالأعرابي أدرك بفطرته الخالية من شوائب اللحن أن الكلام لم يتم بهذه الصورة ، لأن مقتضى نصب " رسول " أنه صفة لاسم " إنَّ " فيكون الخبر غير مذكور فى الكلام وعلى هذا سأله الأعرابي عن المقصود من كلامه ! .

. ويروى أن رجلاً قال لأعرابي : كيف أهلِك ؟ " بكسر اللام " فظن الأعرابي أن الرجل يسأله عن هَلَكته أو هلاكه كيف يكون ! فقال له الأعرابي : صَلْباً !! لأن " أَهْلِك " مضارع " هَلَك " والرجل لا يقصد ذلك . بالطبع . ولكنه أراد سؤال الأعرابي عن حال أهله ، وكان بإمكان الأعرابي أن يرشد الرجل إلى الصواب (بأن يقول : كيف أهلُك) ولكنه . بذكائه الفطري . أراد أن يبكته فرد عليه بمقتضى كلامه الذى لم يقصد معناه !! .

وهذه الروايات . ونظائرها كثيرة . أردت من سردها بيان فائدة النحو (بمعناه العام الذى يشمل الصرف أيضًا) فهو يضع (بقواعده وعلاماته) الفوارق الواضحة بين أساليب الكلام المختلفة ويضع لكل معنى اللفظ الملائم له.

. ومن شرف هذا العلم أنه (يستطيل فى سائر العلوم) فلا غني لأي دارس فى أي علم من العلوم الإسلامية عنه ، فهو علم السلف ، استنبطوا به الأحكام واستفادوا منه فى معرفة الحلال من الحرام ، ويكفي أن نطالع فى كتاب

" الأم " للإمام الشافعي . رحمه الله . لنجد أنه اعتمد فى كثير من اجتهاده الفقهي على النحو ، كتفسيره لقوله تعالى فى بيان صفة الوضوء (وامسحوا برءوسكم) فذهب إلى أن الباء فى " برءوسكم " لها معنيان : إما أن تكون للتبعيض . وهو أظهر معانيها عنده . ولذلك يجزئ عنده فى الوضوء مسح بعض الرأس . وإما أن تكون " الباء " للملابسة . أي يمسح الرأس كله .

وهذا اجتهاد لغوي من عالم فقيه جليل ، أخذ به علماء النحو واقروا أن من معاني الباء " التبعيض " ولا عجب فى ذلك فالعلم كله رحم بين أهله ، ولم يكن السلف . رحمهم الله جميعاً . يفرقون بين علم وآخر ، ولم يعرفوا ما ابتدعناه حديثًا من انفصال وتقطيع لأوصال العلوم ، بدعوى التخصص الذى زادنا ضعفاً على ضعف !! .

ويروى أن أحد الفقهاء لم يوافق الشافعي فيما ذهب إليه من كون الباء فى (وامسحوا برءوسكم) للتبعيض فقال له مناظراً : وكيف تقول فى قول الله تعالى (فامسحوا بوجوهكم) أفتراه يمسح بعض وجهه ؟!! فأعجب الشافعي بذكاء هذا الفتى النابه وقال له : وددت لو كان عندي ولد مثلك ، وعلىَّ ألف دينار لا أستطيع ردَّها !! .

ويحفظ لنا التاريخ روايات كثيرة عن تلاقي النحويين مع الفقهاء، ورجوع الفقهاء إلى رأي النحويين فى تبيان الفوارق بين الأساليب ، باعتبارهم . أي النحويين . أهل الذكر فى هذا الميدان :

ومن ذلك ما حدث بين العالم اللغوي النحوي القارئ علي بن حمزة الكسائي وبين القاضي أبي يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وبين الأصمعي (العالم اللغوي) والقاضي المذكور آنفاً ، فقد سأله الأصمعى عن الفرق بين " عَقَلْتُ

الرجلَ " و " عَقَلْتُ عنه " فقال القاضي الفقيه : لا أجد فرقاً بينهما ، فقال له الأصمعي : أخطأت يا أبا يوسف ! فقال له : وكيف ذاك ؟ قال : عقلتُ الرجلّ : أي دفعت ديته لورثته بعد قتله (خطأً) وعقلتُ عنه : أى دفعتُ عنه الدية لعجزه عن دفعها (فالفرق كبير بين عقلته وعقلتُ عنه) .

ويروى المؤرخون أن أبا يوسف أخذ ينظر فى كتب النحو ويستشير علماء النحو المعاصرين له .

. ومن فضائل علم النحو أنه يعين على السلامة من الوقوع فى الخطأ ، والتخلص من تبعات اللحن ، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم ، المتعبد بتلاوته ، المقدسة حروفه ، المنزهة ألفاظه عن اللحن والخطأ ، وفرق بين اللحن الذى يحرف الكلم عن مواضعه وبين الخطأ الناشئ عن عدم البصر بأسرار العربية والجهل بأحكامها ، فالأول صاحبه آثم خطؤه لا يغتفر ، والثاني جاهل غير مدرك يجب تعليمه وتبصرته ، ولعل هذا يرشدنا إلى فهم مقالة أبي بكر الصديق . رضى الله عنه . فقد روى أنه قال :

" لأن أقرأ فأسقط ، أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ فألحن ؛ لأني إذا أخطأتُ تعلمتُ وإذا لحنتُ افتريت " .

. وروى أن كاتبًا لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . " مِنْ أبو موسى !! فكتب عمر إلى أبى موسى . رضى الله عنهما . : " إذا أتاك كتابي هذا فاضربه (أى الكاتب لا الكتاب !!) سوطًا واصرفه عن عملك " .

فلو لم يكن اللحن . عند عمر . رضى الله عنه . ذنباً يستوجب به العقوبة من الله تعالى لما أمر بضربه وصرفه (لخطورة اللحن وأثره فى فساد الذوق واستمراء الخطأ وهذا ما يحدث اليوم) .

مع ملاحظة أن الكاتب لم يلحن فى كتاب الله عز وجل ، ولا فى حديث رسول الله . ﷺ . فكيف به إذا لحن فيهما ؟ لاشك أن ذنبه سيكون أعظم وأن العقوبة ستكون أشد وألزم !! لأن من لحن فى القرآن الكريم متعمدًا فقد كذب على الله عز وجل ؛ لأنه يصرف كلام الله تعالى عن وجهه ، ويحرفه عن مواضعه .

وقد روي أن النبي . ﷺ . قال :

" من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

ومن لحن فى حديثه . ﷺ . فقد كذب عليه ؛ لأنه . عليه الصلاة والسلام . لم يكن يلحن ، بل كان أفصح العرب ، وهو من قريش ، وكانت رضاعته فى بني سعد أفصح فصحاء العرب بل إنه كان . ﷺ . يهتم اهتماماً بالغًا لأمر اللحن ، ويحذر من خطورته ، ويدعو إلى تعليم الناس كيفية التخلص منه .

فقد روي أنه . ﷺ . سمع رجلاً يلحن فى كلامه فقال لأصحابه :

" أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلَّ " .

. وفى التمكن من قواعد النحو وفهم أسرار والانتفاع به فى تقويم اللسان شرف لكل ناطق بالعربية وأدعى لقبول كلامه ، ويعلو قدر صاحبه فى نظر الناس ، فإذا تكلم سمع ، وإذا خطب جذب ، وما أحسن مقالة ابن الطبيب شاعر الخليفة العباسي المعتصم بالله :

النحو يبسط من لسان الألكنِ والمرء تكرمه إذا لم يلحنِ
فإذا طلبت من العلوم أجلّها فأجلَّها منها مقيم الألسنِ
لحن الشريف يزيله عن قدره وتراه يسقط من لحاظ الأعينِ
وترى الوضيع إذا تكلم معربا نال المهابة باللسان الألْسَنِ

مـــا ورّث الآبـــاء عنـــد وفـــاتهم لنبـــيهم مثـــل العلـــوم فـــأتقنِ
فاطلـــب هُـــديت ولا تكـــن متأبيًـــا فـــالنحو زيـــن العـــالم المتفـــننِ
والنحـــو مثـــل الملـــح إن ألقيتـــه فـــى كـــل صـــنف مـــن طعـــام يُحْســـنِ

وقد كان السلف الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ لا يتسامحون مع لاحن إدراكاً منهم لخطورته على الدين واللسان والكيان ، فاللغة العربية السليمة هي الهوُيّة الأساسية للمسلمين ، واللحن والتحريف من أكبر عوامل الهدم ، وأخطر وسائل الطمس ! .

ولأجل هذا كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يضرب ولده على اللحن ولا يرى الصلاة خلف اللحان ، وكان إذا سمع رجلاً يخطئ (عن سهو) فتح عليه ، وإذا سمعه يلحن ضربه بالدرّة .

وقد ذهب جماعة من الناس إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقالوا له : إن لنا إماماً لحَّانا ، فقال أخرِّوه فإن الإعراب حلية الكلام " .

وهذه الرواية تذكرنا بواقعنا الأليم ، وتقصيرنا الواضح فى الوفاء بحق لغة ديننا ومظهر حضارتنا فكم من قارئ يلحن ، وكم من خطيب يفافئ ويتعلثم (وكم هنا خبرية أو استفهامية لا فرق !) ، إن من يسمع الآن ، ويقرأ ، ويشاهد حالنا مع لغتنا الجميلة لَيَحَارُ ويتساءل :

أبعد هذا العناء الطويل ، والجهد الطويل ، والأسفار الطوال الثقال نعود إلى حال تشبه تلك التى تفشى فيها اللحن ، وكثر الخطأ ، ودعت فيها الدواعي إلى وضع قواعد النحو ؟! .

وإذا رضينا لأنفسنا أن نتغاضى عن هذه الأخطاء الشائعة فى كلامنا المتداول فهل يجوز لنا السكوت عن الخطايا التى يقع فيها كثير ممن يلحنون

ويخطئون فى قراءة الذكر الحكيم ؟.

إنَّ هذه مشكلة أو بالأحرى مأساة تضاف إلى مآسينا المتعددة .

وقد وجدت أبياتاً لعلي بن حمزة الكسائي أحد كبار القراء وأعلام النحاة يصف فيها حال الذى يقرأ فيخطئ ، ويتكلم فيلحن ، وكأنه يصف حالنا اليوم فيقول :

وإذا لم يعرف النحو الفتى هاب أن ينطق جنباً فانقمع
يقرأ القرآن لا يعرف ما صرَّف الإعراب فيه ومنع
فتراه ينصب الرفع وما كان من نصب ومن خفض رفع
وإذا حرفٌ جرى إعرابه صعب الحرف عليه وامتنع
يتقى اللحن إذا يقرؤه وهو لا يدرى وفى اللحن وقع
يلزم الذنب الذى اقرأه وهو لا ذنب له فيما اتبع

لطالما نبه كثير من علماء اللغة والباحثين فيها إلى الأزمة التى تعيشها اللغة العربية فى عصرنا الراهن ، وبذلوا جهوداً مضنية فى تصويب كل ما هو خاطئ أو ركيك أو مبتذل من ألفاظ وتراكيب ، ومع هذا نلاحظ زيادة مطردة فى المحنة ، فالأخطاء تزداد كل يوم سواء فى رسم الكلمة أم فى تركيبها النحوي أم فى أسلوبها الجمالي .

وبات من الضروري أن تستمر الدراسة ، ويتتابع البحث لعلاج هذه الأزمة الخطرة التى لا تقف عند حد الاعوجاج فى التفكير ، والخطأ فى التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى المقدسات (وهي قوام المجتمع العربي وعموده) كالخطأ فى قراءة القرآن الكريم ، وفى فهم الحديث النبوي الشريف ، وكلما تركت الأزمة بلا حل اشتد عود اللحن وقويت شوكته :

لا تَحْقِـــــــــرَنَّ صـــــــــغيرةً إن الجبـــــالَ مـــــن الحَصَـــــى

ويحسن بنا قبل أن نحاول علاج هذه الأزمة التى تعيشها هذه اللغة أن نبحث عن أسبابها .

وإذا نظرنا إلى العوامل التى أدت إلى الاغتراب المتبادل بين اللغة والمجتمع وجدنا أن منها ما يرجع إلى طبيعة الدراسات اللغوية وطرق تدريسها ، ومنها ما يرجع إلى المجتمع المتلقي .

أما العوامل التى ترجع إلى اللغة العربية ومؤلفاتها وطرق تدريسها ، فمنها ما يأتي :

أولاً : غموض عبارات المؤلفين ، وصعوبة فهم أساليبهم ، مما يجهد الدارس فى تفسير كلامهم فضلاً عن استيعاب مضمونه ، والمقترح : أن يعمل أهل اللغة على تسهيل أساليبهم وتخير المستعمل من ألفاظ اللغة ، اتساقًا مع لغة العصر ، وحرصًا على جذب قطاع كبير من أهل العربية الذين لا يجدون فى كثير من مؤلفات اللغة بغيتهم .

ثانياً : الإغراق فى ذكر الشروط والتعريفات والمصطلحات النحوية على حساب القاعدة التى هي فى الواقع بسيطة وموجزة ، إذا اقتصرت على المستعمل والمألوف من الأساليب والتراكيب .

ثالثاً : الشواهد والنماذج والأساليب المذكورة فى كتب النحو . أعني كتب التراث . لا تساير العصر ولا تعلق بالأذهان ، وكثير من شواهد النحو واللغة مجهول القائل ، غريب اللفظ ، وبعضها سقيم المعنى ، يرسخ قيمًا جاهلية لا معنى للإصرار عليها فى وقت توجد فيه نماذج وأساليب وأمثلة من عيون الشعر والأدب قلما تذكر فى كتب التراث النحوي واللغوي .

رابعاً : تضخم كثير من أبواب النحو والصرف بالخلافات والشواذ الخارجة عن القواعد من دون فائدة ولا وظيفة .

خامساً : ويقابل ذلك اختصار بعض القواعد المهمة والاقتضاب فى دراستها مع أهميتها وحاجة المتعاملين مع اللغة إليها ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر : أحكام العدد وكناياته . أسلوب التوكيد . الهمزة وأحكامها فى الإملاء والخط .

سادساً : دخول بعض مسائل النحو والصرف واختلاط بعضها ببعض مما يشتت أذهان الدارسين ويثقل كواهلهم ومن ذلك : باب نوني التوكيد وبابا التفضيل والتعجب ، وهذا يرجع فى تقديري إلى ارتباط شراح الألفية بمنهج ابن مالك . رحمة الله عليه . فى دراسة النحو والصرف ، وهو منهج مع أصالته وريادته غير حاكم ولا لازم .

وأما العوامل التى ترجع أهل اللغة ومجتمع العربية ، فمنها :

أولاً : هجر كثير من المتعلمين للقرآن الكريم بإهمالهم لحفظه ، مع أنه ميزان الاعتدال ، ومنهاج الوصول إلى الكمال ، ولا طريقة أقرب ولا أيسر إلى تقديم اللسان العربي من حفظ القرآن الكريم وتلاوته .

ثانياً : ويعضد العامل السابق قلة الاهتمام بتذوق فنون الأدب العربي من الشعر والنثر ، مما يؤثر على سليقة المتكلم وثروته اللفظية فيستمرئ الخطأ ولا يميز الخبيث من الطيب .

ثالثاً : ومن ذلك أيضًا كثرة الأخطاء فى وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمشاهد ، وقلة المبالاة بحدوث هذه الأخطاء .

رابعاً : الشعور السائد فى المجتمع بالاغتراب عن اللغة وضعف الانتماء لها ، وهذا له دوافعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، مما أدى إلى هجر المجتمع فى كثير من طبقاته للغة ، وهرولتهم وراء اللغات الأجنبية وحرصهم على تعلمها والمفاخرة بإجادتها فى أحاديثهم ومحاضراتهم ومؤلفاتهم ، فضلاً عن انتشار الأسماء الأجنبية للأبناء ، وإطلاقها على المشروعات والمحلات التجارية وغيرها .

خامساً : قلة العائد والمردود من جهود المجامع اللغوية ، والتهميش المتعمد لدورها فى المجتمع ، وانعزال أعضائها عن عامة الناس وخاصتهم ، مما يؤثر على ما يبذله أعضاء المجمع من جهود لتحديث قواعد اللغة ومسايرتها لركب الحضارة ، ويلاحظ أن ما ينتجه المجمع من قرارات ودراسات ومطبوعات لا يصل إلى القراء غالباً ، وهنا نتساءل عن دور وزارة الثقافة السلبي فى هذا المجال الحيوي الخطير .

سادساً : مما يؤدي فى اغتراب الناس عن اللغة العربية وتهميش دورها فى بلدانها وبين أهلها الإصرار على تدريس المواد فى الكليات العملية باللغة الإنجليزية ، بحجة المستوى العلمي المميز لهذه المناهج فى البلدان الغربية ، وعدم وجود مراجع كافية مطابقة لها باللغة العربية ، وعدم وجود مترجمين أكفاء يحافظون على المستوى العلمي أثناء الترجمة بين اللغتين ، وهذا يرد عليه بأن اللغة لم تكن أبداً عائقاً يحول دون عملية التعليم والتعلم ، وقد طبقت بعض الدول العربية تدريس العلوم التطبيقية باللغة العربية . ومنها سوريا . ولم يتأثر المستوى العلمي لأطبائها ، ولكنهم الآن مميزون ناجحون فى مختلف دول الخليج العربية ، ولكنها عقدة النقص التي تسود مجتمعنا تجاه اللغة الأجنبية .

وبناء على ما تقدم أرى أن من وسائل العلاج والتقويم ما يلي :

أولاً : إعادة النظرة فى مناهج التأليف وطرق التدريس وغربلتها والحرص على المفيد والمستعمل منها .

ثانياً : تحديث وسائل التعليم وإدخال تكنولوجيا التعليم فى مختلف مراحل التعليم وتدريب الطلاب على استخدام الحاسب الآلي وتطبيقاته ووسائل الإيضاح المتطورة فى التدريس ، مما يواكب العصر ، ويجذب الدارسين إلى اللغة ويساعدهم على استيعاب قواعدها فى سهولة ويسر .

ثالثاً : التنسيق بين الكليات والجامعات والمجامع العلمية وبين وسائل الإعلام لإعادة الهيبة إلى اللغة واستعادة مكانتها وتخصيص البرامج فى الإذاعة والتليفزيون للتصحيح والتصويب اللغوي ، كما كان عليه الحال فى أعوام سابقة .

رابعاً : الحزم والتشديد فى منع إطلاق الأسماء الأجنبية على المحلات والمنتجات فى البلدان العربية وتطبيق القوانين الموجودة فى هذا الشأن .

خامساً : تفعيل دور المجامع اللغوية وتحقيق التواصل بينها وبين المجتمع وإذابة الجليد المتراكم الموجود حالياً وبين أهلها ، والعمل على وصول مطبوعاتها وقراراتها إلى مختلف طبقات المجتمع ، وهنا نشير إلى مسئولية وزارة الثقافة وتقصيرها الواضح فى هذا الشأن الحيوي ، وإهمالها لدور من أهم أدوارها وإهدارها للأموال الطائلة من ميزانيتها فى أمور أخرى أقل شأناً وأهون خطرًا .

نسأل الله تعالى أن يجنبنا الخطأ والزلل وأن يهدينا جميعاً إلى سواء الصراط .